ناسلية الذات والهوية من الطفولة الى المراهقة سيرورة لا تتوقف

أ.د.حدار عبد العزيز، استاذ التعليم العالي، جامعة البليدة 2

أ.عيد آمال، أستاذة مؤقتة، جامعة البليدة2

الملخص:

لاجدال في أن مفهوم الهَوية يُعد من بين المفاهيم التي تتقاطع عندها العديد من التخصصات(سواء كانت علمية أو فلسفية أو اجتماعية أو نفسية أو أنتربولوجية أو سياسية)

وبما أن تَشّكل الهوية هو عملية مستمرة من الإدخالات التي يتم بموجبها تقمص مرجعيات مختلفة ارتأينا تناول ناسلية الهَوية ومراحل تكوينها للتّعرف أكثر على هذه السيرورة، كما قد أثارت الحاجة إلى التفكير في هذه الإشكالية ظهور عدة اضطرابات نفسية تتعلق بسلامة هذه العملية وهو ما اشار له الدليل التشخيصي الخامس للاضطرابات العقلية DSM 5 والذي لازم بين الاضطرابات الشخصية وتكوين الهوية عبر مراحل نمو الافراد، ولذلك جاءت هذه الدراسة للتعرف اكثر على هذه الناسلية واهم ما كتب عنها. من اجل الربط لاحقا بين تشكل الهوية واسباب الاضطرابات النفسية.

الكلمات المفتاحية: الهوية، ناسلية الهوية، التناولات النظرية للهوية.

Résume:

Il y a aucun doute que le concept de l’identité est parmi plusieurs concepts qui se croisent avec de nombreuse discplines tel que la science, la philosophie la psychologie et encore l’anthropologie ou la politique.

Alorsque l’identité est un processus de grande importance qui n’a pas de fin dont lequel l’individu se rend semblable aux autre, a partir de cette problématique que se pose on a abordé en thème

les gènes d’identité et les procédures de la formation et de création d’identité

De plus la réflexion au ce sujet donne l’émergence de plusieurs troubles psychologique que empêchent la bonne marche du processus de formation d’identité dont le manuel diagnostique et statistique de trouble mentaux (DSM5) pose ce problème et que cherche a relater entre les trouble de la personnalité et la formation d’identité a travers les étapes de la croissance des individus.

Pour cela arrive cette étude pour savoir plus en plus les gènes d’identité et les causes des troubles psychologique

Mots-clés: Identité, Genèse de l’identité, Approches théoriques.

1.الطرح العام للموضوع:

ان البحوث التي تناولت الذات والهوية هي مواضيع قديمة في علم النفس وقد تناولتهما كل التيارات بدء بفرويد (Freud) ويونغ (Jung) وشيلدر(Schilder) وينيكوت (Winnicott)وسبيتز (Spitz)واريكسون(Erikson) وكوت(kohut). أما في نهاية القرن التاسع عشر، فقد تم الرجوع لمفهوم الهوية من خلال أعمال وليم جيمس(W.James) الذي أدخل العامل الاجتماعي والثقافي، إضافة إلى مفهوم الوعي بالذات من طرف كل من ميد(Mead) وكولي(Cooley) وبالدوين(Baldwin)، إلا أنه في النصف الأول من القرن العشرين كبتت السلوكية هذا الحقل من البحث بتركيزها على السلوك الملاحظ فقط. وبالمقابل، ظهر في أوربا وتحديدا في فرنسا تيار علم النفس التكويني والاجتماعي(psychologie génétique et sociale) بزعامة كل من فالون (Wallon) وزازو(Zazzo) وتاب (Tap) وكاميليري(Camilleri) .ثم اتسعت هذه البحوث بفضل إسهامات علم نفس ما بين الثقافات (la psychologie interculturelle) وعلم النفس المعرفي(psychologie cognitive) الذي أدمج إشكالية الذات في علم النفس التجريبي، بينما يُشّكل الآن مفهوم الهوية موضوعا محوريا في علم النفس، حيث يستقي الدليل التشخيصي للاضطرابات العقلية والنفسية في طبعته الجديدة معايير تصنيف الاضطرابات من مفهوم الذات ومدى النجاح في تطوير الاحساس بالهوية.

ولا يمكن الحديث عن الهوية دون أن ذكر ما قدمه اريكسون(Erikson,1968) باعتباره أظهر -ولأول مرة- بناءا جادا على مستوى هذا المفهوم، حيث استعمله في البداية للكشف عن بعض الأشكال المرضية كغموض الهوية (Confusion d'identité) أو للإشارة إلى الأزمة (Crise) التي يمر بها بعض المراهقين، مُبيّنا كيفية تفاعل العوامل النفسية والاجتماعية والتاريخية والنمائية في تكوين الشخصية؛ مما يعود له الفضل في إخضاع الهوية لمجموعة من التخصصات (Multiréfé-rentielle) كالتحليل النفسي وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا وغيرها.

وفي هذا السياق، قدم محمد عبد الرحمن (1998) شرحا للتّصور الأساسي الذي قدمه اريكسون، اعتمادا على الملاحظات التي شاهدها اريكسون على الجنود المشاركين في الحرب العالمية الثانية والتي لفتت اهتمامه (العقبات التي لاقوها عندما حاولوا الاندماج مجددا في المجتمع)، وأصبح أكثر انشغالا بالمشكلات التي ترتبط بالانتشار الحاد في الهوية (Acute identity diffusion)؛ ومع الوقت ومن خلال خبراته الإكلينيكية بدأ يعتقد أن الأزمات النفسية التي خبرها الجنود إنما حدثت كنتيجة لتّخليهم عن الدور العسكري ودخولهم في أخر مدني؛ وهو ما يتماثل مع المشكلة التي يمر بها بعض المراهقين عندما يتركون الطفولة ويتحركون قدما الى مرحلة الرشد. ومن خلال هذا الإطار التجريبي أخذ اريكسون يُطور هذا المفهوم الذي يشير حسب كتاباته الأولى في سنة 1956 إلى استمرار التماثل (الاتساق مع النفس) والاشتراك في بعض الصفات الجوهرية مع الآخرين. وفي الكتابات اللاحقة أظهر أن التماثل الذاتي والاستمرارية يتم التعبير عنهما من خلال الإحساس الشعوري بالهوية الفردية والكفاح اللاشعوري بغرض استمرار الخصائص الشخصية، والعمليات المتتالية للمحافظة على تركيب الأنا والكفاح الداخلي مع معايير الهوية للمجموعة التي ينتمي إليها.

ثم عمل اريكسون (1968) على تطوير هذا المفهوم ليعَرفه على أنه إدراك الحقيقة وأن هناك تماثل ذاتي واستمرارية (Continuité) من طرف الأنا التكاملية وفي نمط الفردية الشخصية، وأن هذا النمط يتوافق مع التماثل والاستمرار للمعنى الشخصي كما يدركه الآخرون المُهمون بالنسبة للفرد في وسطه الاجتماعي.

بينما قدم بيرزونسكي(Berzonsky,1989) مفهوما جديدا للهوية، حيث نظر للهوية على أنها مدخلات وليست مخرجات؛ فهو يرى أن الهوية هي عملية أكثر من كونها بناء، كما قدم مفهوما جديدا يتمثل في»نمط الهوية« (Type de l'identite) الذي يستند إلى الاستراتيجيات المعرفية والاجتماعية التي يتميز بها

الفرد في معالجة المعلومات ذات العلاقة بالذات والخبرة التي يعايشها الأشخاص، والتي تشمل عمليات ترميز ومعالجة وتنظيم وتعديل المعلومات لاتخاذ القرارات وحل المشكلات، ومن ثمة فالهوية هي بناء مفاهيمي يتكون من الأبنية المعرفية والمخططات العقلية لمعالجة وتذويب المعلومات ذات الصلة بالذات، وهي عملية من حيث أنها تشمل التفاعل بين عمليات الاستيعاب لدى الفرد وعمليات التكيف الموجهة بالسياقات المادية والاجتماعية التي يعيش بها الفرد.

ويفهم من خلال هذا المدخل أن مفهوم الهوية تطور بشكل لافت بداية من الخمسينات، ثم شهد خمودا حتى سنوات السبعينات، و كانت الدراسات تتمحور حول فقدان أوبحث أو تأكيد الهُويّة. وابتداء من الثمانينات، توجهت النظريات نحو دراسة السياقات النفسية الاجتماعية للهوية في وضعيات معينة؛ اما حاليا فقد طرح هذا المفهوم بقوة من خلال الدليل التشخيصي الخامس من خلال اعتبار الضطرابات الهوية احد علامات اضطرابات الشخصية. وبالتالي اصبح من المهم التعرف على هذا المفهوم بشكل اكثر تفصيلا من خلال المقال التالي.

2. تعاريف خاصة بالهويةّ:

نحاول من خلال مجموع التعاريف التالية توضيح مفهوم الهُوية بناء على ما قدمته مختلف التخصصات.

1.2.التعريف اللغوي:

حسب لاروس (Larousse, 2010, p406) فإن الهوية هي ما يجعل من شكليين متشابهين في اللون والشكل، وهي مجموعة ظروف أو وضعيات تجعل من شخص ما مميزا وخاصا.

ويمكن أن نستخلص أنَّ الأمر يتعلَّق بالتطابق التام ما بين باطن الشيء وظاهره، أو بتماثل التجليات الظاهرة لأي كينونةٍ مع جوهرها العميق بلا انفصام أو انشطار مهما كان ضئيلا.

3.2.التعريف النفسي:

تستعمل الأبحاث الانجلوساكسونية مفهوم الذات للتعبير عن الهوية (Self concept, Concept de soi).ويعد وليم جيمس من الأوائل الذين استعملوا هذا المفهوم، حيث اعتبر الذات «أنها مجموع كلي لما يستطيع الفرد أن ينسبه لنفسه».

وقد عّرف تاب (Tap) الهوية في البداية على أنها جملة معايير تُمكّن من تعريف فرد ما؛ وهي شعور داخلي، ويتعدد هذا الشعور بالهوية إلى الشعور بالوحدة والانسجام والانتماء وبالقيمة والاستقلالية والثقة؛ إنها مجموعة هذه المميزات منظمة حول الإرادة في التواجد.

وفيما بعد، اعتبر تاب (Tap, 1985,p59) الهوية «أنها نظام من تصورات الذات ونظام مشاعر إزاء الذات»؛ فيما معناه أنه لا يمكن اعتبارها كنتيجة سياق عقلاني محض، ولا كمجموعة إسنادات ذات دلالة تدرك بصفة موضوعية، فصورة الذات هي بناء ذاتي متجدد باستمرار، يتناوب بين المشاعر والانفعالات التي تختلف في اتجاهها وطبيعتها.

فهوُية الشخص هي مجموعة الخصائص الجسدية والنفسية والأخلاقية والقانونية والاجتماعية والثقافية التي تمكن الشخص من تعريف نفسه وتصور ذاته وتعريف غيره بها؛ أو التي يستطيع الغير أن يعرّفه بها ويُحدد موقعه منه.

فالهُوية هي الشيء الذي يحس الفرد بواسطته بأنه موجود كشخص في كل أدواره ووظائفه ويحس بنفسه مقبولا ومعترفا به من طرف الغير و من جماعته الثقافية.

3.2.التعريف الاجتماعي:

ليست الهوية بنية مغلقة وإنما هي بنية متحولة باستمرار، ولكن على محور ثبات. إنها مصطلح يعكس نفسه تحت مجهر الزمن ومعاييره، وفي سياق علاقة تبادلية تنهض على تفاعل متحقق أو مكبوح، مع معطيات الوجود ومكونات المحيط، بحيث لا يُمكن التعامل معه بمعزلٍ عن إدراك مناحي تأثره بالسلطة الزمنية للتاريخ، وبمعطيات حركة الحياة وغايات الحراك أو السُّكون الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والقانوني. لأنه من البديهي حسب غارفيلد وكولاج (Gar-field et College, 2000) أن ينفتح الوجود الواعي على الآخرين ويحتاج إليهم ولا يظهر تمايزه إلا بالاحتكاك بهم، ولكن حضوره ومشروعه وقوة وجوده كل ذلك يتجلى دائمًا بوعيه لخصوصيته وهويته التي تحفظ له ذلك التمايز الذي تكَون عبر تجارب وبيئة وزمن وموروث أجيال من التاريخ والخبرة .

إن التعاريف السابقة لم تتفق على تحديد الهوية بشكل قطعي، إلا أنها لم تختلف في أمر واحد وهو أن للهوية جانب شخصي ذاتي وأخر اجتماعي، وقد بيّن أوريل (Oriol, 1983) أن كل محاولة لإعطاء تعريف شامل ووافي ونهائي يُرضي النفسانيين والاجتماعيين والانتروبولوجيين ستظل بدون جدوى.

3.ناسلية الهوية(Genèse de l’identité):

ليست الهوية معطى نولد به؛ إنما لها جذورها في مراحل مبكرة من عمر الإنسان، ومن خلال ما يلي سنتعرف على أهم محطات تشّكلها وبناءها.

1.3.الهوية الجسمية (Identité corporelle):

الجسم هو السند والقاعدة للشعور بالهوية، وعندما يستطيع الطفل تحديد الإحساسات والضغوط والانفعالات في جسمه يتمكن عندئذ من التميز بين الذات والأخر، والتعرف على الأخر من خلال مظهره الجسمي واحتكاكه مع الأشخاص الذين يقومون برعايته، ويعي الحدود الخارجية من جسمه ومن إحساساته الداخلية (من جوع وعطش وإخراج وغيرها). كما تطبع صورة الذات بالمثيرات النزوية والعاطفية التي تقوم باستثمارها؛ فهي تمثل تصورا يتطور ويُبنى تبعا للتطور الزمني وإحساسات اللذة والألم التي ترافقها. وهو الأمر الذي يؤكده شيلدر(Shilder, 1968, p68) بقوله: « يرتبط الليبيدو النرجسي بصورة متلاحقة مع مختلف مناطق صورة الجسد ومراحل تطور الليبيدو؛ ومن ثم فان نموذج الجسم يتغير باستمرار».

وتتأثر صورة الجسم ومختلف مناطقه بمدى اهتمام الآخر به (بفضل النظرات والكلمات وطرق اللمس وغيرها من الاحتكاكات)، حيث يتماشى هذا الاهتمام مع القيمة التي يعطيها الفرد لجسمه؛ وهو الأمر الذي يعني وجود نوع من التقمص الجسدي(غالبا لاشعوري) الذي يحمل صورة الجسم وتصور الذات. كما أن الإحساسات الجسدية والاستثمارات النرجسية للذات مرتبطة بنوعية الرعاية الأمومية؛ وهو ما يُولد الذات الحقيقية (Vrai self) والذات غير الحقيقية (Faux self).

يجب الإشارة أيضا إلى أهمية الجلد في كونه حاجز بين الذات والعالم الخارجي، وبصفته يمثل منطقة اتصال وتبادل بين العضوية والمحيط. وكان انزيو (Anzieu , 1985, p102)

قد أكد مفهوم ''الأنا جلد'' (Le moi peau) الذي يضمن وظيفة تفرَد الذات التي تسمح بالشعور بالفردانية. بينما أشار بياجي (Piaget, 1964) إلى أن الطفل بين ستة أشهر وسنتين -وبعد أن يعي إحساساته الخاصة- يتعلم بالتدريج الإحساس والإدراك بوجود محيط ''لا أنا'' (Non-je) الذي يمثل المواضيع والأشخاص، وليحقق ذلك فهو بحاجة إلى أربعة أصناف مكونة للواقع (الفضاء والزمن والموضوع

والسببية)، حيث توصل إلى أن مفهوم الموضوع الثابت (L’objet permanent) الذي يعد أساس مفهوم الهوية، لأنه يعتبر انطلاقة لكل تمايز بين الذات والأخر.مع العلم أن هذه الهوية الجسدية هي هوية جنسية أيضا ولا تكتسب فقط باكتساب الجنس العضوي؛ وإنما من خلال تقمصات الطفولة القائمة على عقدة أوديب والتي تتحدد وفق محددات الذكورة والأنوثة الموجودة في ثقافة المجتمعات.

ومن جهته، أشار زازو(Zazzo, 1960) إلى أهمية مرحلة المرآة (Stade de miroir) في تكوين الهوية، حيث درس بطريقة تجريبية كيفية تعرف الطفل على صورته في المرآة: في السنتين يُكون الطفل صورتين واحدة تجريبية داخلية لجسمه من خلال مختلف الإحساسات، وأخرى خارجية لجسمه في المرآة، والإحساس بالهوية يظهر عندما يستطيع الطفل التمييز بين التجربة الداخلية والخارجية، وهذا للتطور ناتج لميكانيزم ثنائي «تموضع/تملك» (Objectivation) / (Appro-priation، حيث يمثل التملك السيرورة التي يصبح من خلالها الطفل مرئيا لنفسه ويكون موضوعا في فضاء الموضوعات ((Se fait objet dans l’espace des objets، لأن إدراك هوية الموضوع ووحدته وثباته يُبنى على تصور فضاء وثبات الموضوع عبر الزمن. ويُوضّح زازو أنه من خلال هذا التلاحم(Fusion) تتحقق قدرة الطفل على استعمال «أنا» في خطابه، مضيفا أن تقمص الأخريين كأشباه (Semblables) تُوظّف بفضل آلية عكسية: ينسب الطفل لهذا الآخر داخلتيه الخاصة (Intériorité). كما تتماشى الهوية الجسمية والتطور الجنسي والاجتماعي بكل مراحل الحياة من البلوغ إلى الأمومة والنضج والشيخوخة وتدفع كل مرحلة من هذه المراحل إلى إعادة النظر (Remaniement) في الهوية الجسمية القائمة على الشعور الكلي للهوية، فعلى مستوى البناء الجسدي، تتكون الهوية في سياق جدلي(Dialectique): بين الداخل والخارج، أي تقمص مزدوج (Identification au double) وتقمص مثلي(-Identification du sem blable)، الاستمرارية والتغير، نظرة نحو الذات ونظرة نحو الأخر، وعلى هذا الأساس تظهر هذه الجدلية في تفاعل عاطفي معرفي واجتماعي بين الفرد ومحيطه.

2.3.الهوية والتفاعل (Identité et interaction):

في البداية يبنى وعي ثابت للذات بصفة متدرجة في خضم العلاقة العاطفية بين الأم والرضيع، وقد أشار سبيتز(Spitz, 1968,p81) إلى أهمية التفاعلات المبكرة في تكوين الشعور بالهوية مركزا على ثلاث تنظيمات:

الابتسامة (Sourire):

- تمثل تقليد واستجابة لمثيرات المحيط فهي تعد قاعدة لكل العلاقات المستقبلية.
- قلق الشهر الثامن (Angoisse du 8eme mois): هو استجابة لرؤية الغرباء، يتعرف الطفل على انفصال أمه عنه ويستطيع تمييزها.
- الرفض (Le non): يظهر الرفض في حوالي السنتين، ويسمح للطفل بالمعارضة ومن ثم فهو يتميز عن غيره. كما يمثل مرحلة تأكيد وإدراك الذات بشكل مستقل (L'identité se pose en s'opposant).

تتزامن هوية الأشخاص والأشياء التي تحيط بالطفل من خلال الأحكام القيمية (جيد/ سيئ، خير/شروغيرها من صفات)؛ فهي تقترح هويات يحددها في نظام تصنيفي حسب هرمية منظمة، تؤدي هذه السيرورة إلى إنتاج نماذج مثالية للتقمص وكأنها جاهزة، حيث تطلب الأسرة والمجتمع من هؤلاء الأفراد العمل وفقها. ويمكن للطفل بفضل اللغة واللعب أن يقوم بمختلف الأدوار على المستوى الواقعي والخيالي: فالمستوى الواقعي يتمثل في الهوية الاجتماعية التي يستجيب من خلالها لمطالب الكبار الذين يفرضون عليه نمطا معينا من السلوك(الطاعة والنظافة وغيرها). أما المستوى الخيالي، فيُعبّر عنها في اللعب من خلاله تقمصه أشخاص خياليين أو حقيقيين ليغذي رغبته في أن يصير شخصا كبيرا ومستقلا. ويتوسع مجال التقمصات بتوسع الوسط الاجتماعي، ويدمج الطفل بالتدرج جماعات الانتماء الـ''نحن'' الذين يشاطرهم ويطبع القيم المعرفية والعاطفية، ويبني معهم الذاكرة الجماعية التي تمثل مجموعة الأحداث والتجارب والنماذج والتصورات؛ هذا ما يعرف بالتصنيفات الاجتماعية (Stratification sociale) وتنبعث أيضا استراتيجيات فردية أو جماعية التي تضع ''نحن'' في مشروع هوية للاعتراف والتقييم الاجتماعي. مع العلم أن التقمصات لا تأتى فقط من جماعات الانتماء؛ وإنما تتأتى من الجماعات المرجعية التي يستمد الفرد منها نماذجه التي يسعى من خلالها أن يندمج حسب ما يرغب في أن يكون، فهي لا تترجم فقط وضعية الفرد المحددة بتاريخه ومكانته الاجتماعية، بل كذلك بطموحاته وحيويته الفردية والاجتماعية، وتؤثر هذه الدينامية بشدة على الشعور بالهوية.

3.3.الأزمات والتحولات:

لا تعتبر هذه السيرورات مجرد إضافة متتالية لعملية بناء الهوية؛ إنما أيضا إعادة إحياء(Remaniement) ومحاولات إدماج نوعا ما ناجحة، إلا أن هذه الحركة

لا تمر دون انقطاعات أو أزمات أو مشكلات ذات طبيعة مَرضية في بعض الأحيان وذلك على اختلاف المراحل العمرية.

وتتدخل عوامل جديدة ذات طبيعة اجتماعية يمكنها أن تؤدي إلى تغيرات مهمة على مستوى الوعي بالذات (المهنة والزواج والأمومة والأبوة والبطالة وغيرها من التحولات)، فقد تؤثر هذه العوامل بصفة عميقة في الهوية النفسية والجسدية وصورة وتقدير الذات، وأحيانا تولد أزمة حقيقية على مستوى الهوية الى درجة تهز كليا إدراك الذات لدى الفرد.

4.3.سيرورات بناء الهوية:

تجدر الإشارة الى أن الشعور بالهوية يتولد من مجموعة من السيرورات أو العمليات التي عمل ادموند (Edmond Marc ,2005) على تقديمها حسب التسلسل التالي:

- سيرورة التفرد أو التمايز(Processus d’individuation):

عندما يستطيع الطفل تحديد موضع أحاسيسه وتوتراته وانفعالاته في جسده، يصبح قادرا على التميز بين ذاته وغير ذاته. وتشكّل صورة الجسد مصدر تصور الذات وحاملة مشاعر الهُويّة، إذ أن الجسد يعد حدا بين الداخل و الخارج، فهو حد ملموس للفردية.

- سيرورة التقمص (Processus d’identification):

يتبنى الفرد نماذج الآخرين ويتشبه بهم من خلال هذه السيرورة، واحتل هذا المفهوم (التقمص) مكانة واسعة في كتابات فرويد، حيث يشير كل من لابلانش وبونتاليس(Pontalis et Laplanche, 1968,p321) إلى ‘‘ أن التقمص أو اكتساب الهوية قد أخذ بالتدرج مكانة واسعة عند فرويد؛ فهو يمثل أكثر من عملية نفسية، إنها الطريقة التي يتكون من خلالها الفرد الإنساني».

سسيرورة التثمين النرجسي (Processus de Valorisation narcissique):

يكون الاستثمار عاطفيا، حيث كلما كان هناك دعم وسند من طرف المحيطين خاصة العائلة كلما تم تغذية الهوية والتسريع في نموها. وقد أسفرت دراسة قام بها كل من بوسما وكونن (Bosma et Kunnen, 2001) أن الأطفال الذين

يتحصلون على دعم وتشجيع مستمرين من أحد الوالدين أو كليهما ويتوفر لديهم إخوة سبقوهم في السن تكون الهوية لديهم أسرع نموا وأكثرا استقرارا من الذين لا يحظون بالشروط السابقة؛ وهو الأمر الذي يرفع من تقديرهم لذواتهم ويشبع نرجسيتهم.

- سيرورة الاحتفاظ (Processus de conservation):

تضمن هذه السيرورة الاستمرارية عبر الزمن بالوعي الذاتي والشعور بالثبات رغم اختلاف الأدوار والمواقف بتغير الزمن.

- سيرورة الانجاز(Processus de réalisation):

يظهر من خلالها تفتح الفرد نحو المستقبل بما فيه من انجازات ومشاريع.

يعمل مجموع هذه السيرورات في قالب حيوي دينامي لأنها سيرورات متطورة، وتميل نحو الاستقرار النسبي؛ فالشعور بالهوية يتأثر باستمرار بالمواقف الحياتية كالأدوار والمكانات والعلاقات مع الآخرين والأحداث الخارجية (لقاء وحداد وطلاق وفقدان وهجرة وغيرها)، تؤثر كل هذه الأحداث على صورة الذات والشعور بالهوية، فهي ليست بالحركة الجامدة الخطية، إنما تطبع بالتحولات والحركات النكوصية التي تستمد حيويتها من الرغبة في الحصول على التوازن(Homéostasie).

وأظهر ليبيانسكي (Lipiansky , 1992) أن نمو الهُويّة لا يمر بدون توترات أو أزمات ومن بينها تلك التي تحدث عند البلوغ أو المراهقة، والتي لا تنتهي أيضا عند سن الرشد، فأحداث الحياة مثل أزمة سن الأربعين والتقاعد والأمومة وسن اليأس، كلها تولّد توترات تفرض على الفرد القيام بتعديلات مستمرة في هيكلة هويته.

- **سيرورة متطورة:**

يستمد الشعور بالهوية جذوره من الطفولة وهي عملية غير خالية من الأزمات والقطيعة، وحتى يصل الطفل إلى حالة من التوازن يجب عليه أن يتكيف باستمرار مع النضج البيولوجي والجنسي والاجتماعي، وهي ليست مجرد تقمصات ثابتة لأنه سيهجر بعض هذه التقمصات. وتمثل المراهقة أحد أهم الأزمات والانقطاعات في بناء هذه الهوية لأن الفرد يتمكن من الحصول على نماذج جديدة (الأقران والأقارب والمشاهير).

5-3رتب الهوية:

أما على المستوى التطبيقي، فقد حدد مارسيا الهوية بناء على رتبها، ونجد أن أبحاثه احتلت الصدارة في مجال الاهتمام بدراسة الهُويّة ونموها في مرحلة المراهقة بالولايات

المتحدة الأمريكية، ويُعرّف مارسيا الهُويّة- نقلا عن كلاس(Claes ,1980, p160)- «أنها بنية داخلية وديناميكية للمهارات والاعتقادات والتقمصات السابقة». ولتعريف هذا المفهوم إجرائيا، اعتمد على منطلق نظري مزدوج، وهو أن هُويّة الأنا تعتبر كحالة افتراضية لبنية تدريجية للشخصية تظهر لأول مرة في المراهقة، وهي شعور ذاتي يمكن تناوله بواسطة الاستبطان، وتكون هذه البنية متطورة كلما كان الفرد واعيا بتفرده وتشابهه مع الغير واختلافه عنه بحدوده وإمكانياته أمام الخيارات التي يقوم بها في الحياة. وتكون هذه البنية هشّة كلما عانى الفرد من نقص في التمييز بين الذات والغير، أو لجأ إلى الغير لتحديد خياراته الأساسية. ويتمثل الاختبار الحاسم لتقييم نضج السياقات القاعدية في قياس مستوى تنظيم مختلف العناصر المكوّنة للهُويّة ضمن وحدة مرنة. فحسب مارسيا، إن الحد الأدنى لبنية الهُويّة يتضمن تبني توجّه جنسي وموقف إيديولوجي واختيار اتجاه مهني.

لذا انصبت دراسة مارسيا (Marcia, 1966) على تناول بنية الهُويّة بواسطة مقابلة نصف موجهة تستكشف ثلاث مجالات: الإيديولوجية والاختيار المهني والاندماج الجنسي. وفقا لنتائج المقابلات تم استخلاص أربع مستويات للهُويّة اعتبارا لمعيارين، وهما:

- انعدام أو وجود فترة حرجة لاتخاذ القرار في المجال المدروس، قصد استخراج العناصر المكونة لتعريف الذات و وجود فترة نشطة من التساؤل.
- درجة الاستثمار العاطفي والاندماج المعرفي في مختلف المجالات مما يسمح بتقييم التنظيم الوظيفي للعناصر في إطار وحدة مرنة في طور الإنهاء.

ويمكننا تلخيص هاته الرتب كما قدمها مارسيا Marcia, 1966)) على النحو التالي:

. الهُويّة المحققة (Identité réalisée):

تُميّز الأفراد الذين مروا بتجربة حرجة واندمجوا في تحضير مهني ولهم إيديولوجية خاصة، حيث مروا بفترة تساؤل والبت بين اختيارات متعددة، و أخذوا قراراتهم بمحض إرادتهم.

. الهُويّة المؤجلة (Identité moratoire):

تخص الأفراد الذين يكونون في حالة انتظار ويكونون في تساؤل عام ومتناقض،

رغم أنه يتضمن صراعا بين إمكانيات مختلفة. فالفرد يبدو مرتبكا، وتظهر له الاهتمامات والمشاكل الحيوية كمسائل مستحيلة الحل.

. الانتشار (Identité de diffusion):

يتميز الفرد الموجود في هذا الصنف بأنه لا يكترث بمسائل الاختيار وانعدام الدخول في أي نموذج إيديولوجي أو مهني أو جنسي. فالصورة البارزة لدى هذه الفئة هي انعدام التورط الانفعالي أو المعرفي في أي مجال من المجالات المدروسة.

. الطمس (Identité de forclusion):

لم يتعرض الفرد هنا لتجربة أزمة، إذ لا يمكن تحديد الفترة الفعلية لاتخاذ القرار أمام الوقائع الحيوية، رغم أنه يبدو معنيا بنشاطه المستقبلي وإيديولوجيته ودوره الجنسي. فإنه يصبح ما كان الآخرون يريدون أن يكون عليه.

ولقد عرف هذا النموذج رواجا كبيرا وبيّنت العديد من الدراسات أن العلاقة بين مراكز الهُويّة ومختلف خصائص شخصية المراهقين، منها أن الذكور ذوي هُويّة محققة أو مؤجلة هم أكثر نضجا وتكيّفا من ذوي الهُويّة المنتشرة أو المطموسة؛ بينما لدى الإناث -فحتى اللواتي لديهن هُويّة مطموسة- تظهر لديهن نفس الجوانب الإيجابية مثل المراهقين ذوي الهُويّة المحققة. فالإناث ذوات الهُويّة المطموسة يملن إلى بعث التقاليد العائلية ولا يمكنهن الدخول في مسالك جديدة -موقف التأجيل- إلا بصراع نفسي حاد.

إن تناول مارسيا يعتمد على معطيات أمبيريقية بحيث بنى تقنية لقياس الهُويّة في المراهقة، وهي تقنية ثرية من حيث عدد المتغيرات المرتبطة بالمفاهيم المدروسة مما ساهم بقسط وافر في التحديد الإجرائي لمفهوم الهُويّة، إلا أن تناوله يعوزه الإطار النظري، رغم أنه انطلق من عناصر مستقاة من نظرية إركسون، إلا أنه لم يتم توظيفها في فهم البناء التدريجي لهُويّة الأنا خلال مرحلة المراهقة.

3-6. حاجات الهوية(Les besoins identitaires):

تحقق الهوية مجموعة من الحاجات بدءا من الحاجة إلى الوجود ثم باقي الحاجات التي تتعلق بالتقدير والاعتراف، فبناء الهُويّة يتم في إطار الاستجابة لانشغالات ثلاثة تظهر في إضفاء معنى ودلالة للذات التي تكون حاملة لقيمة وتقدير إيجابيين وتضمن التكيف مع الواقع وربط العلاقات مع الغير. وهذا ما سنتناوله من خلال حاجات الهوية التي قدمها ايدموند (Edmond Marc ,2005).

- **الحاجة إلى الوجود (le besoin d’existence):**

أن أكون موجودا في نظر الآخرين(اعتراف الجماعة) هو شعور يعطي مشاعر الأمن للاعتراف بداخلنا في حوار مع الأخر.

- **الحاجة إلى التكامل (Le besoin d’intégration):**

يترجم البحث عن الاعتراف وذلك من خلال الحاجة إلى التقدير كعضو في الجماعة كأن أشكَل جزءا منها وأحتل مكانة فيها؛ بمعنى أن لا يكون الفرد مرفوضا ولا مهمشا .

- **الحاجة إلى التقييم (Le besoin de valorisation):**

في عملية البحث عن الاعتراف ينتظر الفرد أن يحظى بقيمة معينة وبصورة ايجابية وهي حاجة نرجسية أساسية وسند للشعور بالهوية. وعلى نقيض ذلك، يرتبط التقدير الواطئ للذات بهشاشة الهوية، قد تحفز هذه الحاجة الاستراتيجيات التقييمية (Les stratégies valorisantes) موجهة نحو الآخرين بهدف الانتماء والشعور بالأمن.

- **الحاجة إلى المراقبة (Le besoin de contrôle):**

يستلزم الشعور بالهوية إدراك الفرد كفردانية مستقلة قادرة على أن تحدد سلوكياتها وتمارس نوعا من الضبط على الذات والمحيط. وعلى عكس ذلك، إذ فَقد الشخص استقلاليته ومراقبته لسلوكياته وخضع للاجبارات والمؤثرات التي بإمكانه تفاديها سيعيش ذلك كتهديد لهويته وكنوع من الاغتراب.

- **الحاجة إلى التفرد (Le besoins d’individuation):**

التفرد هو إدراك الفرد لذاته كشخص فريد (Unique) وثابت ومستقل، فهو يعَبر عن الشعور بالهوية والاستقلالية والاختلاف.

وتعد هذه الحاجات محركات قاعدية للديناميات الجماعية التي بموجبها يتفاعل الأفراد مع احتفاظهم على قدر مناسب من التوازن والثبات.

7.التناولات النظرية المُفسّرة للهوية:

إن إشكالية الهُويّة تخص بصفة متفاوتة من حيث الأهمية عدة تخصصات ومن اهم التناولات نجد:

1.7.التناول التحليلي(L’approche psychanalytique):

فسر التناول التحليلي الهوية على أنها استثمارات نزوية وآليات تقمص تربط بين الفرد والمحيطين به وقد تطور مفهوم الذات فعليا بداية من الستينات بفضل التيار الأنجلوساكسوني المعروف بعلم النفس الأنا (Ego psychologie) بزعامة كاربر وكوهت وجاكبسون(Kernberg et Kohut et Jacobson). اتفقت الفرضية الأساسية التي قامت عليها بحوثهم فيما يخص الهوية على أن التصورات التي يحملها الفرد عن ذاته وجسمه ليست نتاجا لسيرورة معرفية فقط وإنما هي أيضا نتيجة لحركات انفعالية خاصة منها استثمارات نزوية-فسرتها نظرية النرجسية la théorie du narcissisme)- وتطبع بشكل أساسي من خلال التفاعلات الأولية التي ينسجها الرضيع مع الوسط العائلي.

ويمكن القول أن بناء الذات كما قدمها اريتي (Arieti,1967) هو نتيجة لسيرورة ثلاثية:

- سيرورة جسدية نفسية (Processus somatopsychique): حيث صورة الذات تعتمد في بنائها على صورة الجسم.
- سيرورة نزوية (Processus pulsionnel): حيث تستثمر عاطفيا هاته الصورة وتضبط وتسيّر الحب وتقدير الذات.
- سيرورة علائقية ذاتية(Processus relationnel et intersubjectif) : تسمح بتكوين صورة الذات بالنسبة للآخرين (في نظرهم) أي نظرة الوالدين اتجاه الابن.

وقد ساهمت هذه التفسيرات في إعطاء مكانة لمفهوم الذات في الفكر التحليلي، وهذا ما نجده في أعمال جاكبسون سنة 1964 التي تعتبر الذات انعكاسا للشخصية في كليتها؛ فهي الجسد والجهاز النفسي التي تمثل معا مفهوما وصفيا للفردانية (Individualisation).

كما سعت التحليلية الى توضيح المراحل الأولى في تكوين الهوية، حيث أكدت في مجملها على الأسس الجسدية العاطفية للذات. وعلى هذا الأساس، أشار جاكبسون إلى مفهوم الذات النفسية الفيزيولوجية (Soi psychophysiologique) والذات الأساسية (Soi primordiale)

كما أن أعمال المحللين النفسانيين ساهمت في الكشف عن البنيات التي تلعب دورا في الربط بين الفرد والمحيط بواسطة آلية التقمص، وهي المثال الأعلى للأنا

(Idéal du moi) والأنا الأعلى (Surmoi): فهما الهيئتان اللتان تلعبان دورا بالغ الأهمية في تمفصل ما هو نفسي بما هو اجتماعي، وبين الفردي والجماعي. فلقد بيّن التحليل النفسي أن الفرد يبني المثال الأعلى للأنا من خلال نماذج متنوعة من مثلنة الصور الوالدية والقيم والرموز والإيديولوجيات؛ في حين يُعدّ الأنا الأعلى حصيلة للوقائع الاجتماعية والتاريخية ويتكون من قيم ومعايير المجتمع. فالأنا الأعلى يؤدي وظيفة تاريخية في ضمان استمرار التقاليد والحفاظ على التاريخ البشري على مستوى الفرد.

2.7.التناول الاجتماعي(L'approche sociale):

تعمل التنشئة الاجتماعية على مساعدة الفرد إدخال العناصر الاجتماعية الثقافية لمحيطه، ودمجها في شخصيته تحت تأثير تجاربه مع المتعاملين الاجتماعيين ذوي الدلالة وتعلم النماذج والقيم السائدة في المجتمع؛ التي يستدخلها الفرد لتصبح جزءا من جهازه النفسي.

تنبثق الهوية حسب اريكسون(Erikson, 1968) عن الهجر الانتقائي والتشابه المتبادل للتقمصات واستيعاب الأشكال التي يقدمها المجتمع، وتحتوي الهوية على مجموعة من المشاعر والخبرات والخطط المستقبلية المتعلقة بالفرد، حيث تعمل هذه التجارب في سياق ثقافي وتتأثر بالتفاعل القائم بين الفرد والبيئة.

ومن جهته، يركز ميد (Mead, 1963) على أهمية تبني الشخص لآراء الآخرين حول نفسه، باعتبار الفرد يتصرف وفقا لما يعزوه إلى حالات مختلفة، هاته الحالات ناتجة عن تفاعل بينه وبين الآخرين، كما يتم بناء الهوية نتيجة هذا التفاعل، لأن الفرد يكون مشاركا نشطا وبقدر من المرونة. ويتم هذا البناء وفق ثلاث مراحل: «تقليد الأخر»(Imitation) يكون ذو معنى بالنسبة للفرد والذي يصبح لاحقا مرجع، يليه «تقمص هذه المرجعيات والتفاعل مع البيئة الاجتماعية، ولا يتم ذلك إلا بتقبل الفرد وضع نفسه مكان الآخر(Construction de moi)، وفي الأخير «التعرف على الذات» من خلال أفراد الجماعة(Reconnaissance du soi).

ومن ثمة اعتبر(Ziller) زيلر نقلا عن ادموند (2005) أن الهوية تتحدد بالأخر، إذ اقترح نظرية التوجه ذات- أخر (Soi- Autrui) واعتبر أن الفرد يتحدد في إطار مع الأخر أو الجماعات المهمة بالنسبة إليه، حيث أن الهوية هي نوع من

الإجابات الاجتماعية للمثيرات الناتجة من التفاعلات مع الآخرين، ويسعى الفرد إلى كسب نوع من تقييم الذات من خلال هذه الجماعة.

3.7التناول النفسي الاجتماعي (Approche psychologie sociale):

يشدد هذا التناول على أن الهُويّة تتحقق عبر سياق مزدوج هو التنشئة وذلك من خلال الاجتماعية (socialisation) والفردانية (personnalisation). وقد أسهم هذا التناول بشكل مميز في دراسة الهوية بدءا من فكرة ميد (Mead) التي مفادها أن الذات في أساسها بنية نفسية واجتماعية تتولد بفضل التفاعلات اليومية، وأن الفرد يعي هويته من خلال تبنيه لأراء الجماعة التي ينتمي إليها.

وأوضح اريكسون (Erikson,1972) أن تكوين الهوية يستلزم سيرورة تفكير وملاحظة متلازمين، وهي سيرورة نشطة في كل مستوى التوظيف العقلي، حيث يقيَم الشخص نفسه على ضوء تقييم الآخرين له وبالمقابل يقيّم الطريقة التي تم تقييمه بها على ضوء طريقته الخاصة في إدراك ذاته، ويكون جزء كبير من هذه السيرورة لاشعوريا. مع العلم أن هذه العملية -حسب اريكسون- هي موضوع تطورات وتحولات على المستوى النفسي والاجتماعي، بحيث تتكون الهوية عبر مراحل تقمصية منذ الطفولة التي تطبع بنماذج مثالية في سياق ثقافي وفي صور خيالية إذ تستثمر النزوات الليبدية والنرجسية وتحدد التصورات اللاشعورية لـ «الذكورة والأنوثة» وهذا ما نلاحظه عند الجماعات المهمشة والأقليات، عندما تدمج بصورة سلبية من طرف الجماعة المسيطرة ويدركون ذواتهم من خلال هذا الصورة.

وقد ميّز غوردن (Gordon, 1968) ثمانية أبعاد كبرى للهوية يمكن عرضها في العناصر التالية:

- المميزات الشخصية: الجنس والسن والاسم والأصل والعرق والجنسية والديانة،
- الأدوار والانتماء: الأدوار العائلية والمهنية والانتماءات الأيديولوجية والمكانة الاجتماعية والمشاركة في الجمعيات،
- التقمصات المجردة: الفردنية الأيديولوجية التصنيفية،
- الاهتمامات والنشاطات: الهويات ومختلف الممارسات،
- المراجع المادية: الصورة الجسدية والممتلكات،
- الإحساسات الخاصة بالذات: الكفاءات والشعور بالوحدة والقيمة الخلقية،
- الخصائص الفردية: التميز عن الآخرين والفردانية،

- أحكام حول الذات: مثل أنا محبوب وغير ذلك.

4.7.تناول الأنتروبولوجيا الثقافية (L’ approche d’anthropolo-gie culturelle):

نجم عن تواتر تحرك الجماعات البشرية وهجرتها تداخل الثقافات وامتزاجها؛ بالتالي تدخل عنصر التثاقف كعنصر فعال في تشكيل وتحديد الهوية وهو ما سعت إلى تفسيره التناولات الانتروبولوجية والثقافية لاحقا.

طبعت أعمال هذا التوجه بأعمال التحليل النفسي، وقد اهتمت بموضوع الهوية في بعده الجماعي وذلك بالاعتماد على ما قدمه اريكسون وكاردينار، وقد درست الأنتروبولوجيا المكانيزمات التي بفضلها تنتج وترسل كل ثقافة نماذج وأنماط الشخصية الخاصة بها، كما تم ذلك أيضا بفضل أعمال كل من اريكسون وميد وفروم وبتلهايم.

أما في فرنسا، فقد ركزت أعمال دوفيرو (Devereux, 1967,p113) على مفهوم الشعور بالاستمرارية عبر الزمن الملازم للهوية، «فالقول أن الشيء مطابق لذاته، معناه مقارنته في زمنين مختلفين، فمبدأ التفردية يعني عدم تغيّر الموضوع رغم تغيّر الزمن». وترتكز هذه التجربة على إدخال كل الخبرات عبر مراحل الحياة ودون قطيعة، حيث يعتمد هذا الإحساس على مؤشرات منها ديمومة الجسد والذاكرة وتعاقب التجارب؛ فكلما أدى العمل النفسي إلى حوصلة وإدماج مختلف التجارب بإضفاء دلالة عليها استمر الشعور بالهُويّة. أما في حالة ما إذا حدثت قطيعة، فإن ذلك سيولّد شعورا بأزمة هوية. ولكي نتمكن من الشعور باستمراريتنا وعدم تغيرنا في الزمن، يجب أن نتمكن من تنظيم الأحداث التي تقع لنا في سلسلة سببية، وتعد هذه السلسلة تصميما زمنيا أحادي الاتجاه، منطقيا وغير قابل للتعديل.

5.7.التناول التكويني النمائي (L’approche génétique):

قدمت نظرة أكثر انفتاحا من خلال فكرة الهجر الإنتقائي للنماذج السابقة وكذا تبني الفرد أراء الآخرين حول نفسه (وهو الأمر الذي أُهمل سابقا). ونجد من رواد هذا الاتجاه كل من تاب وزازو وفالون مالريو وغودريقرز تومي(Rodriguez-tomé, Tap, Zazzo, Wallon, Malrieu)، حيث أظهر فالون (wallon) أهمية العلاقة بين الذات والأخر في تشكيل وبناء الوعي بالذات وحاول تبيان المراحل التي يمر بها الطفل في عملية التمايز بين الذات والأخر.

أما زازو (Zazzo, 1986) فقد ركزت على مرحلة المرآة (Stade de miroir)

والتي اعتبرتها حاسمة في معرفة والاعتراف بالذات ومشكلات الهوية، حيث قامت بدراسة واسعة لتصور الذات لدى المراهقين على عينة تبلغ 665 مراهقا، وتوصلت الى أن موقف المراهقين اتجاه تصورهم للمحيط البشري يتميز بتحيزهم وتثمينهم للفئة التي ينتمون إليها مع ميلهم إلى التمييز بين الصفات المرتبطة بالذكور وتلك المرتبطة بالإناث، كما خلصت إلى وجود علاقة وطيدة بين تصور الذات والآخر، بحيث أن الشعور الذي يتكوّن لدى المراهق باختلافه عن غيره هو نتيجة للقيمة التي يعطيها لشخصيته أو بعدم تقييمه الإيجابي لإمكانياته الخاصة في تأكيد هذه الشخصية في الواقع، في حين أنها تقل عند المراهقين الأكبر سنا لكونهم قد اكتسبوا نظرة أكثر واقعية عن أنفسهم.

كما حاول رودريقاز تومي (Rodriguez-Tomé, 1972,p74) في دراسته أن يحلل العلاقة الموجودة بين الذات و الآخر في تكوين الشعور بالذات أو تصوّرها. و لقد أجرى هذه الدراسة على عينة مكوّنة من 180 مراهقا و120 مراهقة، وقد بينت نتائج الدراسة وجود تقارب بين الصورة الذاتية ومختلف الصور الاجتماعية، وهذا يعكس تقارب مختلف مكونات الشعور بالذات «فالنواة الصلبة لصورة الذات تحتوي على الغير الذي يجب أن يعرّف المراهق نفسه لديه بشكل شبيه للإدراك الذي يكونه عن ذاته»، وهذا يثبت حتمية الانسجام الداخلي للفرد، فالعكس يؤدي إلى أنا مقسّم وإلى القطيعة في العلاقات مع العالم.

6.7.التناول المعرفي (L'approche cognitiviste):

بدأ مفهوم الذات في الثمانينات يأخذ مكانته في الولايات المتحدة الأمريكية كأحد أهم مواضيع علم النفس المعرفي التجريبي وذلك بتطبيقه في معالجة المعلومات في البحوث المتعلقة بالهوية.

واعتبر كل من كهلسترن وبيولا (Kihlstron et Piolat, 1992) الذات تصورا ذهنيا يبنيه الفرد حول شخصيته، ويكون هذا التصور مخزنا في الذاكرة وهو مكون من شبكة معرفية (مجردة وصفات شخصية ومحسوسات مرتبطة بتجارب وأفكار وسلوكات معينة) مترابطة تهدف إلى لتفسير وتأويل المعلومات، حيث تكمن وظيفتها في ضمان وضبط التجربة الاجتماعية.

غالبا ما اعتبر هذا التناول الذات كنقطة مرجعية معرفية مميزة، وله الفضل في إبراز تعددية الذات بحيث ميّز بين: الذات الموقفية (Soi situationnel) التي تظهر الذات حسب المواقف التي يختبرها الإنسان والذات الاستعدادية(Soi

التي تمثل مجموع التصورات المستقرة والمستمرة والذات (dispositionnel الحالية(Soi actuel) التي تبرز كيفية تصور الفرد لذاته والذات المثالية(Soi idéal) التي تُعبّر عن صور مثالية عن الذات، إضافة إلى الذات الممكنة (Soi possible) وهي ما يطمح الفرد أن يكون في المستقبل.

وتبنى التناول المعرفي الرؤية التي قدمها ميوسن(Mussen, 1980, p13) في أن الهوية هي «بنية عقلية مركبة، لها خصائص معرفية وانفعالية التي تحتوي على إدراك الفرد على باعتباره شبيه نفسه ويختلف عن غيره». إلا أن هذا التناول -الذي أغفل التوجه الانفعالي- لقي نقدا من طرف التناول التكاملي والنسقي على أساس أن الهوية ليست فقط بنية معرفية؛ بل أنها أيضا سيرورة حيوية وعلائقية، حيث تتدخل -بشكل متناوب- آليات لاشعورية وحركات الاستيعاب والتمايز للنماذج الاجتماعية والثقافية للوظائف المعرفية (منظور متعدد المرجعية).

يظهر من خلال كل ما ذكرناه من تناولات نظرية مدى تنوع الأبحاث بخصوص الهوية، فبالرغم من اختلافها الظاهر اتفقت على أهمية التفاعل الاجتماعي في بناء وتطور الهوية.وهو ما جعلنا نخصص جزءا نتناول فيه أهمية التنشئة الاجتماعية في بلورة وبناء الهوية.

8.التنشئة الاجتماعية وتكوين الهوية:

تمثل السياقات الاجتماعية والثقافية والبيئية عامل مهم في نمو الهوية، ويأتي تأثير التنشئة الاجتماعية من اكتشاف الفرد للقيم والإيديولوجيات والمعاني والرموز والالتزام بها خلال العلاقة التبادلية بين الفرد والسياقات في المستوى الواسع والأشمل والسياقات في المستوى الضيق والأصغر.فالسياقات الواسعة هي التي تشمل الثقافة والقيم والبيئة الفيزيائية والديموغرافيا والسياسة والطبقة الاجتماعية والجماعة العرقية للفرد، أما السياقات الأصغر والأضيق فتشمل أشكال الاتصال بين الأفراد من نقاشات وحوارات وتفاعلات يومية بين الفرد والمجتمع.

1.8.دور الأسرة في تكوين الهوية:

تعتبر الأسرة من السياقات الاجتماعية المهمة التي تؤثر بشكل مباشر وقوي في نمو وتشّكل هوية الأفراد من خلال عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي. وقد اعتبر آدمس (Adams, 1998) أن نمو الهوية ضروري للفرد لسببين: الأول يتمثل في حاجة الفرد للشعور بالتفرد أما الثاني فيظهر في حاجة الفرد للانتماء وأهميته بالنسبة

للآخرين وهذا يتم الاهتمام به خلال التنشئة الاجتماعية للفرد.

وافترض ويترمان (Waterman, 1982) أن التواجد مع الوالدين قبل مرحلة المراهقة هو أحد العوامل المؤثرة في تشكيل الهوية، حيث تتشكل حالة تقييد الهوية إذ تواجد الطفل مع أحد والديه واعتبره نموذجا ايجابيا والتزم بتوقعات الأسرة فيما يتعلق بالمهنة والإيديولوجيات الدينية والسياسية، أما في حال اعتبار الوالدين نموذجا سلبيا للالتزام بالقوانين والإيديولوجيات الدينية والسياسية فان هذا يؤدي إلى تشكيل حالة تشتت الهوية عند المراهق.

2.8. دور الثقافة في تكوين الهوية:

إن الدراسات الأنتربولوجية الثقافية في الولايات المتحدة قدمت إسهاما كبيرا في ترسيخ دور الثقافة في تشكيل وحفظ الهوية، بزعامة كل من ميد ودوفرو (De-vreux)، فقد سمحت أعمال هذا الأخير بتبيان أن الثقافة والشخصية تظهران معا وأنهما متطابقتين، إذ تساهم الثقافة في التوظيف النفسي الداخلي للفرد، حيث بيّن دوفرو (Devreux, 1967) أنه عندما يعاني المجتمع من أزمات فإن ذلك سيعرض معنى الهُويّة لدى أفراده للخلل، وتميل البيئة الاجتماعية في مثل هاته الحالات إلى التأثير على الجزء النووي من نفسية الإنسان والمتمثل في معنى ذاته المكوّن من صورته الجسدية من جهة، وشخصيته العرقية (ethnique) التي تتكون خلال المرحلة الأوديبية ومرحلة «المواضيع» الكلية التي تعمل كوسائط (médiateurs) للبيئة الاجتماعية والثقافية من جهة أخرى.

وبما أن الهوية مرتبطة معرفياً بالحقل الثقافي الذي يشكله تقاطع مجموعة محددة من المجالات في زمن ما، فان ذلك يفرض على كل من تلك المجالات مساحة انتماء مختلفة تحدد بشكل مؤثر سمات الهوية؛ فالإنسان في طفولته تختلف قيم انتماءاته عنها في شبابه وكهولته وشيخوخته بسبب تطور جهازه الإدراكي من جهة، وتأثير بعض عوامل البيئة المحيطة من جهة أخرى.

ولقد خلصت الدراسات الأنتربولوجية إلى اعتبار الثقافة ليست كمجموعة من المضامين الفلكلورية؛ بل كتنظيم واسع متداخل ومعقد لفكر حقيقي يشمل التصورات الخاصة بالعالم ويلجأ استراتيجيات وجودية يسكن فيها الفرد قبل أن يستثمرها. وهي الفكرة التي أوردها نور الدين جباب) بقوله «أن الهوية الثقافية هي منتوج تاريخي أسهمت في تكوينه عوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة داخلية وخارجية».

إن البعد الثقافي في الهوية يستدعي بدوره الحديث عن الهوية الجماعية أو

العرقية، حيث تتحدد الهوية بانتماء الفرد لجماعة ما، وقد تكون:

- جماعة بيو نفسية (الجنس والسن وغيرهما)،
- جماعة اجتماعية ثقافية (عرقية ومحلية ووطنية)،
- جماعة الأدوار والمكانات (أدور عائلية وأدوار عمل وغيرها)،
- جماعات إيديولوجية(فلسفية ودينية...).

ترتبط هذه الجماعات الإنتمائية بنماذج مثالية وتصورات ومشاعر تطبع الشعور بالذات، حيث عبّر موسكوفيسي(Moscovici, 1972, p 292) عن ذلك بقوله: «أن الهوية الاجتماعية للفرد ترتبط بمعرفة انتمائه لجماعة اجتماعية معينة وبالمعنى العاطفي والتقمصي الناتج عن هذا الانتماء''.

3.8. دور اللغة في تكوين الهوية:

لا يكتمل الحديث عن الهوية في غياب اللغة، فخطاب الوالدين يوَجه الهَوية ويعطي معنى لسلوك الطفل ويمنحه تصورا لذاته يلتزم به الطفل لاحقا، وهنا تظهر جدلية جديدة للهوية بين الموضوع والاسم والجسم والرمز والمظهر والتسمية الدال والمدلول، فاللغة تعطي معنى وحياة اجتماعية للهوية، لأنها ليست مجرد وصم يفرض على الموضوع؛ إنما فضاء أين تتكون التصورات والقيم والإيديولوجيات التي تولد الثقافة. وفي هذا الصدد، يقول قريماس(Greimas, 1970, p100) ''أن الأفراد لا يستعملون اللغة إنما يتكونون جزئيا منها''.

9.وظائف الهوية:

أشار محمد مسلم(2009) إلى أن الهوية تعتبر نظاما من المشاعر والتصورات والاستراتيجيات المنتظمة، فهي نظام بنيوي مميز متجذرة في زمنية ماضية ''الجذور والثبات'' وفي نسق السلوكات الحالية المرتبط بمنظور مستقبلي (المشاريع والقيم والأساليب) تتركب بهويات متعددة مرتبطة بالشخص''هوية جسدية ومزاجية وخصوصيات فردية''، أو بالجماعة ''الأدوار والمكانات''.

وفي هذا السياق، يؤدي البعد الحقيقي لصورة الذات وظيفة التكيف التي تسمح للشخص أن يحس ايجابيا بوجوده مع الآخرين الذين يكون بالضرورة في مواجهتهم، وهذا ما أطلق عليه كاميليري (Camilleri, 1989) اسم «الوظيفة البرغماتية» أو «الأدائية» (Pragmatique) للهوية؛ لكونها تسعى إلى تحقيق تكيف الفرد مع محيطه، فالهُويّة لا تنبني بصفة أحادية بل بمراعاة الواقع الذي يستقي منه الفرد أكبر

قسط من المواد المكونة لأناه، فيمكن لهذا المحيط بتناقضاته أن يهدد وحدة الأنا؛ لذا ينبغي أن يكون بناء دلالة الهُويّة في تناغم مع المحيط عن طريق التفاوض معه.

إن الوجهة المعرفية للهوية عند كودل (Codol, 1979) توضح أبعادا مترابطة وتُكوّن في مجموعها شعور الفرد بهويته، ولا تنحصر هذه الأبعاد في الوعي بوحدته وبتفرده وثباته في المكان والزمان؛ وإنما تكمن أيضا في التجانس الداخلي للفرد وايجابيته شعوره بالاستقلالية.

ومن ثمة تعتبر الهوية الوظيفة الدينامية للفرد فهي جوهر وجوده في الحياة لأنها هي التي تمكَنه من التوازن والبقاء والاستمرارية داخل المحيط الذي يتواجد فيه، ومن جهة أخرى تساعد قدرتها على التغير في إيجاد التوازن مع المحيط الجديد.

10.الخاتمة:

بعد أن كان يُنظر للهوية ككيان مستقل وسياق آلي لإستدخال عناصر جديدة، أصبحت تعتبر الآن نظاما نشطا وتفاعليا ومعقدا وبنية متعددة الأشكال، حيث أجمع الباحثون على اختلاف توجهاتهم على أن الهوية يجب دراستها في شكلها الدينامكي؛ فهي نتاج سياق يدمج مختلف التجارب ولا يتوقف في سن أو أزمة معينة وهو ما أشرنا إليه من خلال مختلف التناولات النظرية التي أدرجت في الفصل. اضافة ان اهم المعايير التي تم تغيرها في تشخيص اضطرابات الشخصية DSM5L:

هي فشل في تطوير الاحساس بالهوية والذات، مع وجود فشل علائقي وبين شخصي: ينطوي هذين المعييارين على خللين رئسيين هما: اضطرابات الهوية وصعوبة تقرير المصير كذلك الجانب العلائقي من خلال (درجة التعاطف، العلاقات الحميمة، التعامل مع الاخر) وهو ما يعطي اهمية بالغة في فهمنا لمفهوم الهوية وتطورها داخل الحقل العيادي.

المراجع بالغة العربية:

1. محمد السيد عبد الرحمن(1998). مقياس موضوعي لرتب الهوية، الاديولوجية والاجتماعية في مرحلتي المراهقة والرشد المبكر، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.
2. محمد مسلم(2009). الهوية في مواجهة الاندماج عند الجيل المغاربي الثاني بفرنسا، دار قرطبة، الجزائر
3. محمد نور الدين جباب (2006). إشكالية الهوية والمغايرة في الفكر العربي المعاصر، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر.

المراجع باللغة الاجنبية

4. Adams, G (1998). The objective measure of ego identity status: Arefrence manual, Department of family relation and applied nutrition, University of guelph, Canada.
5. Anzieu, D (1985). Le Moi-peau, Dunod, Paris.
6. Appadurai, A (1996). Modernity at large. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.
7. Ariéti, S (1967). The Intrapsychic Self, Basic Books, New York.
8. Berzonsky, M (1989). Identity style: Conceptualization and measurement, Journal of adolescent research, N°4,p p268, 282.
9. Bloch, H et all(1992). Grand Dictionnaire de la Psychologie, Larousse, Paris.
10. Bosma, H and Kunnen, S (2001). Determinants and mechanism in Ego identity development: A review and synthesis, Development review, N° 27, pp3966-.
11. Camilleri, C et al(1989). Chocs de cultures : concepts et enjeux pratiques de l'interculturel, L'Harmattan, Paris.
12. Camilleri, C et al. (1990). Stratégies identitaires, PUF, Paris.
13. Cheek, J & Briggs, S (1982). Self consciousness and aspect of identity. Journal of research in personality, N°16, pp 401408-.
14. Claes, M (1983). L'expérience adolescente, Bruxelles, Pierre Mardaga.

15. Codol, J (1979). Semblables et différents, Recherches sur la quête de la similitude et de la différenciation sociale, thèse de doctorat d'État, université de Provence.
16. Devreeux , G(1967). La renonciation à l'identité : Défense contre l'anéantissement, In. Revue française de Psychanalyse, janv.-févr, Tome XXXI, N°.1, pp.101142-.
17. Devreeux, G (1972). Ethnopsychanalyse complémentaire, Flammarion, Paris.
18. Edmond, M (2005). Psychologie de l'identité soi et le groupe, Dunod, Paris.
19.
20. Erikson, E (1960). Enfance et société, Delachaux & Niestlé Lausanne.
21. Erikson, E (1972). Adolescence et crise, La quête de l'identité, Flammarion. Paris.
22. Erikson, E (1968) . Identity : youth and crisis, Norton, new Yourk
23. Garfield, j et College (S) (2000). Reductionism and Factionalism Comments on Siderits' Personal Identity and Buddhist Philosophy, University of Melbourne Central Institute of Higher Tibetan Studies
24. Georges, L (1996). A quoi sert l'identité? , Colloque de Bruxelles, 1527-Avril.
25. Goldberg, C (2003). Applicant's reaction to the employment interview a look at demographic similarity and social identity theory, Journal of business research, N° 56, pp.561751-.
26. Gordon, C et Gergen, K (1968). The Self in Social Interaction, Wiley, New York.
27. Gregg, A (2006). Identity Crisis Multiculturalism: A twentieth-century dream becomes a twenty-first-century conundrum, The Walrus, London.
28. Greimas, A (1970). Du sens, Le Seuil, Paris.
29. Jousselme, C (2008). Souffrance dans la construction identitaire de l'enfant atteint de maladie chronique : place du regard parental Pain in the identity construction of sick children: Parental look, Neuropsychiatrie de l'enfance et de l'adolescence, N° 56, pp. 233–236

30. Katja, M et Kirchler E (2002). Attitudes towards the Euro by national identity and relative national status, Journal of Economic Psychology, N°24, pp.255367-.
31. Khan, M (1976). Le Soi caché, Gallimard., trad. FR. Paris.
32. Knippenenberg, D et Hogg, M (2003). A social identity model of leadership effectiveness in organizations, Research in organizational behavior, V25, pp.243265-.
33. L'ecuyer, R (1978). Le Concept de soi, Paris, PUF.
34. Lardjane, O (1997). Identité collective et identité individuelle ; Réflexions : Elites et questions identitaires, Alger, Ed Casbah, pp.1323-.
35. Laplanche, J et Pantalis, J (J.P.)(1968). Vocabulaire de psychanalyse, PUF, Paris.
36. Lipiansky, M (1992). Identité et communication, PUF, Paris.
37. Marcia, J (1966). Development and validation of ego identité status, Journal of personality and social psychology, N° 3, pp.551558-.
38. Martin, H et all (2007) . Aspects of identity and their influence on intentional behavior: Comparing effect for three health behaviors, Personality and individual differences, Personality and individual differences, N° 42, pp.355367-.
39. Mead, G. H (1934). L'Esprit, le soi et la société, Paris, PUF, trad. fr. 1963.
40. Moscovici, S (1972). Introduction à la Psychologie Sociale, 2 vol, Larousse, Paris.
41. Mosselson, J (2006). Roots & Routes: A re-imagining of refugee identity constructions and the implications for schooling, Center for International Education, University of Massachusetts Amherst, Teachers College, Columbia University, Current Issues in Comparative Education, Vol. 9(1).
42. Mucchielli , A (1992). L'identité, Paris, P.U.F., Q.S.J, 3ème Ed.
43. Oravecz, R & Lajtai, L (1994). Inter-ethnic communication, Solidarity, Refugee identity transformation (In the mirror of Slovene refuge politics during the Balkan war), Inter-ethnic communication, Solidarity.

44. Oriol, M (1983). La crise de l'état comme forme culturelle, un peuple méditerranéen. Paris.
45. Piaget, J (1964). La Formation du symbole chez l'enfant, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé.
46. Poche(2010). Larousse, Paris, France.
47. Robert, M (1982). Fondements et étapes de la recherche scientifique en psychologie. Maloine Editeur.
48. Rodriguez-Tomé, H (1972). Le Moi et' Autre dans la conscience de l'adolescent, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé.
49. Schilder, P (1968). L'image du corps, Gallimard, Paris.
50. Spitz, R (1968). De la naissance à la parole, Paris, PUF.
51. Tap, P (1985). Masculin et féminin chez l'enfant, Privat, Toulouse.
52. Waterman, A (1982). Identity development from adolescence to adulthood: An extension of theory and a review of research, Developmental psychology, N°3, pp.341358-.
53. Zazzo, R (1986). Les dialectiques originelles de l'identité, In. Identité individuelle et personnalisation, TAP (P.) et al, Privat, 1986, pp.207217-, Toulouse.